فاطمة اليوسف كنموذج لإبداع المرأة العربية في الفن والصحافة

يزخر التاريخ الإنساني على مدار عصوره بعطاء وافر من الإبـداعات الرفيعة ، وإن كان يستحق الإعجاب من يبدع والظروف له مواتية فيسـاعده غنى أسرته واستقرارها على التعلم ، وعلى شق طريق المجـد والشـهرة • فأولى بالإعجاب من يبدع والظروف له معاكسة ، لا حسـب ولا نسـب ولا غنى ولا جاه بل يُتم وفقر وتشرد وشقاء ، وظروف قاهرة لا تمكن صـاحبها من أن يجد له فرصة يثقف فيها نفسه أو يظهر قدراته بل تعاكسـه الطبيعـة فيكافحها ويتغلب عليها ثم يتجلى إبداعه في نهايـة الأمـر وتتعـدد قدراتـه وخبراته في مجالات مختلفة • لقد كانت فاطمة اليوسف من النوع الثانى فكل الدلائل كانت تشير إلى أنها بعد فقدها لوالديها وهى صغيرة ستكون خادمة في أحد المنازل أو بائعة في إحدى المحال التجارية أو عاملة في مصنع أمـا أن تكون "سارة برنارد الشرق"[1] ملكة المسرح المتوجة[2] • أو صاحبة قلـم أو مالكة لمؤسسة صحفية ضخمة كروز اليوسف فهذا كان لا يدور في خيال أحد حتى فاتح الرمل ، أو قارىء الفنجان أو الضارب بالحصى •

ألقى هذا البحث فى مؤتمر المرأه العربية والإبداع الذى عقده المجلس الأعلى للثقافه فى أكتوبر ٢٠٠٢

(١) الوطن : ٢٣ مارس ١٩١٦ •

(٢) محمد السيد شوشه : رواد ورائدات السينما المصرية

لقد انحصرت معايير الإبداع عند فاطمة اليوسف فيما يلى :

١- أنها كانت تتمتع بذكاء فطرى أخاذ مكنها من القدرة علـــى تعلـــم القراءة والكتابة دون أن تدخل مدرسة ، ودون أن يضطرها أحد إلى تعلمهـــا كما تعلمت الفرنسية عن طريق السماع حيث كان يلقنها لها الفنان عزيز عيد أثناء تعاملها معه على المسرح ، يضاف إلى ذلك أنه كان لديها القدرة على أن تفهم ما يدور حولها ، فبعد أن هيأ لها القدر أن تعيش في وسط فنى بعـــد أن اصطحبها "فرح أنطون"[١] اليه وهى طفلة لم تتجاوز الســـابعة مـــن عمرهـــا إستطاعت أن تلتقط من هذا الوسط كل ما استطاعت استيعابه حتى تمكنت من أن تضع قدمها على بداية الطريق ، فعملت في بداية حياتهـــا كومبـــارس[٢] وكانت أحيانا تترك مكانها في خشبة المسرح أثنـــاء التمثيـــل لتتســـلل إلـــى الكواليس وتنظر في الممثلين والممثلات وهم يروحون ويجيئون وتحـــاول أن تتعلم طريقتهم في الإلقاء وتنغيم الكلمات رغبة منها في أن تكون مـــثلهم[٣] ، وبذلك سارت في أولى خطواتها نحو الفن ، وهى ترسم في نفسها لوحات كان لها أكبر الأثر في حياتها الفنية والأدبية ، فتجاوبت مع كل هؤلاء في فـــنهم ، وأدركت بوعى أنها خلقت لهذا اللون من الحياة ٠

٢- إذا كان يتحتم على المبدع أن يكون موفقا في اختيار الآخر الـــذى يأخذ بيده نحو المجد فقد كان أمام هذه الفتاة الشابة أن تحكم بين عقلها وقلبها وأن تختار بين يوسف وهبى ابن البكوات وفارس أحلام أى فتاة ترغب فـــي الغنى والعيش في القصور وبين الفقر المتمثل في عزيز عيـــد ذلـــك الفنـــان القصير القامة المحدوب الظهر والمفلس دائما والذى كان يقتات قوتـــه يومـــا

---

(١) صاحب فرقة ومسرحية مشهورة في ذلك الوقت ٠

(٢) عبد التواب عبد الحى : عصير حياتى ص ٩٢ ٠

(٣) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ٢٣ ٠

... ولكن في قسمات وجهه الإخلاص للفن والعمل من أجله ، فحكمت عقلها واختارت عزيز عيد ذلك الأستاذ الذى كان يرضى بالفقر والجوع إلا أن يخرج رواية تمثيلية واحدة بطريقة لا يرضى عنها[١] . والذى كان الممولون وأصحاب الفرق يطلقون عليه "الرجل النحس" لأن مشروعاته الفنية كانت لا تدر عليهم الأرباح ولكنهم كانوا يعرفون في الوقت نفسه قدراته كأستاذ[٢] . فأولاها بالرعاية ، وصقلها بالرأى ، وأخلص لها وتبنى مواهبها ، وكان نموذجا يحتذى في العطاء وإنكار الذات والقدرة في تكوين نجمة جديدة منها تجيد الوقوف على المسرح[٣] . وإيصال الفن للجمهور وخلال ذلك أخذت فاطمة اليوسف تتبع أستاذها كظله لا تتحرك إلا بمشورته وتصغى دائما لآرائه وانتقاداته بكل حماس حتى نهلت من موارده الفنية .

٣- وإذا كان من أسباب ظهور إبداع المبدع وجود بيئة تهيئ له الفرصة لا أن تقتل روح الإبداع فيه فإن البيئة التى تواجدت فيها فاطمة اليوسف قد قدمت لها الفرصة الملائمة ، وعرفت قدرها وإمكاناتها وساعدتها على السير في طريق النجاح فبيئة الفنان عزيز عيد أزالت عنها ما أحاط بحياتها من الوحدة والألم وملأت نفسها بالثقة وبثت فيها الشجاعة حتى صنعت مجدها الفنى ، يضاف إلى ذلك أن البيئة المصرية في ذلك الوقت بما فيها من تأثيرات وتطورات كانت حبلى بالموهوبين مما ساعدها على إبراز مواهبها ، وأعطيت لها الفرصة لتعمل وتنتج بطاقاتها الكاملة . فكم من مبدع لم يأخذ فرصته لأنه ظهر في مكان وزمان لم يتح له الفرصة فيهما فماتت مواهبه

---

(١) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ١٦ .

(٢) نفسه ص ٤٤ .

(٣) أمير أبو الفتوح : إحسان عبد القدوس يتذكر ص ١٤ .

وقتلت عبقريته وكم من مبدع قدمت له البيئة الملائمة الفرصة وعرفت قدره وإمكاناته فسار في طريق النجاح .

٤- وإذا كان يتحتم على المبدع الإصرار على الوصول إلى الهدف المراد تحقيقة والاستعداد الفكرى[١] . وبذل كل الجهود لتذليل الصعاب التى تواجهه فقد بذلت فاطمة اليوسف كل جهودها للبروز في مهنة الفن والصحافة والتعمق في أسرارهما لا يدفعها في ذلك سوى الحرص البالغ على المستوى الرفيع والحماس الخالص لتقديم عصارة خبرتها ومهارتها فيهما حتى استطاعت أن تصنع مجدها ، وأن تمضى إلى غايتها صُعُدا فوق أشلاء المصاعب والمتاعب ، فوقفت على خشبة المسرح تعتصر الفن من دمها وأعصابها لتكون فنانة راسخة القدم والبطلة الأولى في المسرح والملكة المتوجة على عرشه[٢] فقد برعت وأجادت واستطاعت أن تؤثر في قلوب الجماهير فأطلق عليها النقاد "سارة برنارد الشرق"[٣] .

وإذا كان القلق على المستقبل من سمات المبدع فإنه بالرغم من الشهرة الواسعة ، وصعود فاطمة اليوسف إلى عرش الفن فقد دفعها قلقها على المستقبل ، وخشيتها أن تتراجع ولو خطوة واحدة إلى الوراء إلى التفكير في اعتزال المسرح خاصة وأنها لم تعد راضية عن أدوارها التى كان يكلفها بها يوسف وهبى ، والتى أحست من خلالها أن مجدها الفنى يختنق ، وأن جدران المسرح تهتز ، وأن الأرض تميد تحت أقدامها[٤] . مما جعلها تخرج محتفظة

---

(١) الكسندروا روشكا : الإبداع العام والخاص - ترجمة غسان عبد الحى ، ص ٣٣ .

(٢) محمد السيد شوشه : رواد ورائدات السينما المصرية ص ٣٨ .

(٣) كان ذلك اسم الممثلة الفرنسية نجمة "الكوميدى فرنسيز" التى كانت تعرض مسرحياتها بالفرنسية في مواسم الأوبرا المصرية ، وكانت شهرتها تملأ دنيا الفن في ذلك الوقت .
كامل زهيرى : مائة إمرأة وإمرأة ص ٧١ .

(٤) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ٧٧ .

بالشهرة التى وصلت إليها ، وأن تترك المسرح قبل أن يتركها ، وأن تختار الوقت المناسب للاعتزال وهى في قمة مجدها [١] .

٦- وإذا كانت الرغبة في إصلاح المعوج من الأمور من سمات المبدع الحقيقى فإن ولوج فاطمة اليوسف ميدان الصحافة كان دافعه إحساسها بأن الوسط الفنى في حاجة إلى مجلة فنية هادفه تساهم في النهوض بالحياة الفنية بلا إسفاف أو تجريح ، تقوم بالنقد الفنى السليم الذى يساهم في النهوض بالحياة الفنية ، ويقف في وجه المجاملات التى تعيش على حساب الفن كالنباتات الطفيلية فتهاجم من لا يدفع لها نقدا لاذعا ، وترفع من أسهم من يزودها بالهبات والأموال مما أساء إلى المسرح المصرى وإلى العاملين فيه ومن هنا برزت أمامها فكرة إصدار مجلة فنية . وعلى الرغم من المعوقات الكثيرة التى اعترضتها خاصة وأنها أنثى ، ولم يكن من حق المرأة أن تدخل في ميدان الحياة العامة في ذلك الوقت بل كان يجب عليها أن تضع الحجاب على وجهها فما بالنا باقتحامها ميدان الصحافة ، وفي أن تسمى مجلتها باسمها ، وأن تتحمل وحدها مسئولية إصدارها ، وأن تترأس صحيفة كل من يعمل فيها رجال . ومع ذلك وعلى الرغم من قسوة الموقف والحملات الهجومية التى تعرضت لها ، ودعوة المخلصين لها بالتريث في الأمر [٢] . فقد استطاعت أن تجتاز التجربة ، رغم قلة ما معها من مال وأن تخرج منها بدروس مستفادة وأن تصدر مجلة للفن الرفيع والأدب الراقى الذى كانت لا تعرفه سوق الصحافة في هذه الأيام فكانت لا تتعرض بالتجريح لأحد ولا تنال بالشتائم من إنسان حتى لو هاجمها بل تقف مرفوعة الرأس ترد على الهجوم بالحجج المنطقية ، وعلى الرغم من مطالبة البعض منها أن تبحث

---

(١) كامل زهيرى : مرجع سابق ص ٣٣٩ .

(٢) روز اليوسف : العدد الأول في ٢٦ أكتوبر ١٩٢٥ .

روز اليوسف عما يدور خلف الكواليس ، وداخل الأبواب الخلفية فإن فاطمة اليوسف أصرت على أن تحتفظ المجلة بكبرائها • وبالرغم من ضيق ذات يدها فإنها لم تطلب معونات مادية من أحد ، بل أدارت أمور مجلتها عن طريق دفاتر الاشتراكات التى طبعتها وساهم في شرائها هدى شعراوى وأم كلثوم[١] .

وعلى الرغم من مهاجمة عبد القادر المازنى لفكرة إنشاء هذه المجلة واعتبارها نزوة عابرة • فقد كان رد فاطمة اليوسف أن كل عمل مجيد في أوله يكون نزوة طارئه ثم يتحول إلى فكرة فإذا رسخت أصبحت يقينا •

وفي الحقيقة أن إصدار هذه المجلة لم يكن نزوة عابرة بل عزيمة إمرأة حديدية[٢] • أثبتت قدرتها على التصميم والإصرار والصبر ، والقدرة على استشعار المستقبل ، وتخيل الجديد والقادم والنظرة التى لا تقف عند حدود ، والإصرار والعزيمة المتقدة التى هيأتها للوصول إلى قمة النجاح فقد نالت موهبتها عن السير في ركاب الصحافة التقليدية ، وأخذت تبتكر أساليب جديدة • وكان من أهمها شخصية "المصرى أفندى" وكاريكاتير صاروخان وكانت تضم بين جنبات جريدتها أبرز الكتاب ، وأنضج الآراء •

٧- وإذا كان على المبدع أن يكون من أصحاب المواقف والمبادئ السامية والمدافع عن وطنه وقت المحن فقد وقفت فاطمة اليوسف في مجلتها بجانب السياسيين الذين ارتدوا رداء الوطنية والشرف وتخلت عن كل من خلع منهم ذلك الرداء فسعت إلى سعد زغلول الذى كانت شديدة الأعجاب بوطنيته[٣] • وكانت تسير على قدميها إلى المكان الذى كان يخطب فيه

---

(١) روز اليوسف : في ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥ •

(٢) كامل زهيرى : مائة إمرأة وإمرأة ص ٦٧ •

(٣) Gamal M, Ahmed : The Intellectual Origins of the Egyptian Nationalism, pp. 52-53

للاستماع إليه ، وكانت تقرأ تطورات الحركة الوطنية ، وتتحمس لكل مظاهرة تهتف بخروج الإنجليز والاستقلال التام ، وتثور ثائرتها لمحاولات الإنجليز النيل من كبرياء المصريين ، وتدافع عن الدستور ، وتتحدى كل السلطات : الانجليز ، والملك ، والأحزاب الذين تألبوا عليها ، وحاولوا هدمها وإغلاق صحيفتها[١] . واعتقال كلماتها ، وفرض حظر التجول على أفكارها . وإلى جانب ذلك كانت تضع القضية الوطنية أحد أهدافها الرئيسية داعية إلى توحيد الصفوف حول الهدف الأول وهو الاستقلال وليس الوصول إلى كرسى الحكم ، وأن يتجاهل الناس كونهم وفديون أو سعديون أو دستوريون أو مستقلون بل يكونوا مصريين فقط . وعلى الرغم من اهتزاز الأرض من تحت قدميها فإنها لم تهتز ، وبالرغم من مصادرة أعداد مجلتها ، وتعطيل الحكومة لها مرات عدة فإنها كانت تقاوم هذا التحدى بإصرار وترفض أى تدخل من أى جهة في شئون مجلتها فكلما عطت الحكومة المجلة أصدرت مجلة أخرى باسم جديد[٢] . وزاد من إصرارها تفكيرها في إصدار جريدة يومية بجانب الأسبوعية وكان لها ما أرادت وأصبح لها منذ عام ١٩٣٥ جريدة ومجلة فظهرت روز اليوسف كأقوى جريدة يومية وأقوى مجلة أسبوعية حيث كتب فيها عباس العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى ، ومحمد التابعى ومحمود عزمى وغيرهم من مشاهير الكتاب ، وإلى جانب ذلك فقد كانت فاطمة اليوسف أول سيدة تدخل السجن في قضية من قضايا الرأى في عمل لم يسبق له مثيل رافضة الخضوع لأسلوب القهر أو وسائل الإغراء المادى والأدبى .

---

(١) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ٣ .

(٢) من هذه الأسماء الصرخة والرقيب .

لقد ناصرت فاطمة اليوسف الوفد خاصة أيام سعد زغلول وتحملت من أجل ذلك العديد من ألوان الاضطهاد من الحكومات المعارضة له لقناعتها أنه يعمل لمصلحة البلاد ، وبصفته العدو الأول للإنجليز والمنادى بحقوق مصر في الجلاء والاستقلال ثم انقلبت عليه رغم وجود مصطفى النحاس على رأس الوزارة مما عرّضها للعديد من المشاكل ٠

وفي روز اليوسف نادت فاطمة اليوسف بمقاطعة البضائع الإنجليزية ، وكانت شخصية المصرى أفندى هى الرمز الذى يعبر عن رجل الشارع المصرى الذى يظهر نفوره من مصافحة المحتل[١] ٠ ويعد نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ساندت مجلتها الثورة وأهدافها وعندما سجن الرئيس عبد الناصر ابنها إحسان لخلافه معه في بداية الثورة لم تهتز بل كتبت إليه رسالة في ١١ مايو ١٩٥٣ تقول فيها "إنك في حاجة إلى الخلاف تماما كحاجتك إلى الاتحاد" [٢] كما ذكّرته بأن الحرية هى "الرئة الوحيدة التى يتنفس بها المجتمع ويعيش ٠٠ والانسان لا يتنفس في وقت دون آخر ٠٠٠ إنه يتنفس حين يأكل وحين ينام وحين يحارب أيضا" ٠

وإلى جانب ذلك فلم يهتز لها جفن بل ردت الإهانة بمثلها وكان ذلك عن طريق تجاهل مجلتها الكتابة عن الثورة والثوار لفترة ، وعندما طلب منها عبد الناصر مقابلته كان ردها "إن كان يطلبنى كحاكم فروز اليوسف لا تسعى إلى الحكام لا عن رغبة ولا عن رَهبة ٠٠ وإن كان يطلبنى لنتحدث حديث الأصدقاء فعلى أصغر الأصدقاء سنا أن يسعى لأكبرهم" ٠

وإذا كان المبدع لا يعتز بشئ قدر اعتزازه بفنه وكرامته ، ولا يتغير بتغير الظروف والأحوال ، ولا يساير إلا ما هو مقتنع به فإن فاطمة اليوسف

---

(١) روز اليوسف في ٢٣ ديسمبر ١٩٣٥ ٠

(٢) أمير أبو الفتوح : مرجع سابق ص ١٩٥ ٠

كانت تتمسك دائما بمواقفها وآرائها رغم المخاطر ، فكانت لا تداهن ولا تتملق أحدا بل كان رأيها أن من يبنى مجده درجة درجة يجب ألا يفرط فيه ، ولا يترك نفسه يهبط السلم الذى صعده ، مهما كان الثمن باهظا ويكفى أن نذكر أن روز اليوسف في السنتين الثالثة والرابعة من عمرها من أكتوبر ١٩٢٧ إلى أكتوبر ١٩٢٩ صودر منها أكثر مما صدر ، فقد صدر منها ٤٢ عددا ، وصودر ٦٢ ، كما أن فاطمة اليوسف تعرضت لتحقيقات ورفع عليها قضايا ووقفت في ساحات المحاكم ، وكانت لها رحلات شبه يومية إلى مبنى النيابة[١] ، كما أنها أودعت السجن الذى لم يستقبل سيدة واحدة في قضايا الرأى في ذلك الوقت .

وهكذا وقفت فاطمة اليوسف بشجاعة يندر وجودها في العديد من الرجال أمام أعتى التحديات تتبنى الكلمة الشريفة التى تستهدف الدفاع عن الحقيقة مهما كانت التضحيات .

وظلت روز اليوسف كما بدأت مجلة تعتمد على النقد في الفن والسياسة وكان سلاحها المقال اللاذع والكاريكاتير كما كانت شخصية المصرى أفندى هى الرمز الذى يعبر عن رجل الشارع المصرى . وكانت عشا طبيعيا للموهوبين الذين فتحت لهم فاطمة اليوسف بيتها لعقد الندوات الثقافية والسياسية التى اشترك فيها كبار رجال الأدب والسياسة والفن[٢] .

وهكذا كانت السنين الأولى من طفولة فاطمة اليوسف وصباها هى التى حددت ملامح شخصيتها وبينت ذكاءها . فقد مشت الطريق كله على ساقيها حتى صعدت من أعماق السفح ، وبعد أن استوعبت وتفجرت فيها كوامن

---

(١) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ١٣٠ .

(٢) أميرة أبو الفتوح : مرجع سابق ص ١١ .

العبقرية ، وتربعت على القمة أفرزت فنا جميلا وفكـرا رائعـا ، وقضـايا صحفية وسياسية ساخنة لدرجة أن البعض لقبها بأبرز صحفية في عصـرها، كما خرَّجت جيلا من الكتاب والسياسيين الصحفيين الذين أرشدتهم ، ووجهت أقلامهم التى ساهمت في صياغة مستقبل مصر الحديثة الفكرى والسياسى ٠٠ وهكذا مثلت فاطمة اليوسف جيلا بأكمله ، وعانـت الكثيـر مـن المتاعـب والمصاعب لدرجة أن زُجَّ بها إلى السجن حتى تتزحزح عن مواقفها ، ومـع ذلك رفضت تبعية مجلتها لأى حزب من الأحزاب التى كانت تسيطر علـى الحياة السياسية في مصر في الأربعينيات مما جعل مجلة روز اليوسف منبرا يلتف حوله كافة القيادات الثورية في مصر في ذلك الحين ٠ وظلت فاطمـة اليوسف شاهرة قلمها تدير مجلتها بجسارة حتى سلمت أمورها لابنها إحسـان عبد القدوس الذى دربته واطمأنت لقدرته على تولى مهام المجلة التى كونتها بدمها وأعصابها خلال سنين طويلة ٠

وأخيرا يمكن القول أنه يكفى هذه السيدة فخرا أنها بالرغم من كونها لم تكن تحمل شهادة مدرسية ، ولا مؤهلا علميا فإنها أخرجت جيلا كاملا مـن الكتاب السياسيين ، ومن الصحفيين ، وهى التى أرشدت أقلامهم ووجهـتهم ، وهى التى بثت فيهم الروح الصحفية بعد أن انتقتهم ورشحتهم لمستقبلهم وكان من هؤلاء مصطفى وعلى أمين ، وإحسان عبد القدوس ويكفيها فخـرا أنهـا جعلت من مجلة روز اليوسف التى كانت لا تملك شيئا من مقومات الصحف الكبيرة المجلة الأولى في ميدان السياسة ٠

القى هذا البحث فى مؤتمر المرأة العربية والإبداع الذى عقده المجلس الأعلى للثقافة فى أكتوبر ٢٠٠٢

* *

مكتبة البحث

١- المراجع العربية والمعربة :

- الكسندرو روشكا : الإبداع العام والخاص - ترجمة غسان عبد الحى - الكويت دار المعرفة ، ديسمبر ١٩٨٩ .

- أميرة أبو الفتوح : إحسان عبد القدوس يتذكر ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢ .

- عبد التواب عبد الحى : عصير حياتى ، القاهرة ، د.ت .

- فاطمة اليوسف : ذكريات ، القاهرة ، كتاب روز اليوسف ، العدد الأول ، ديسمبر ١٩٥٣ .

- كامل زهيرى : مائة امرأة وإمرأة ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ .

- محمد السيد شوشه : رواد ورائدات السينما المصرية ، القاهرة روز اليوسف ١٩٧٨ .

٢- المراجع الأجنبية :

- Gamal M, Ahmed : The Intellectual Origins of the Egyptian Nationalism .

٣- الدوريات :

روز اليوسف : أكتوبر ١٩٢٥ ، ديسمبر ١٩٣٥ ، أكتوبر ١٩٤٥ .

الوطن : مارس ١٩١٦ .

* * *